خواطر فى الحرب

للأستاذ محمد عرفة

يعجب قوم أشد العجب من هذه الأمم المتحاربة ، ويرون أنهم أصيبوا بنوبة جنونية ، أو بخذلان لم يكونوا ليصلوا إليه إلا بغضب من الله وخزى من الشيطان ؛ وإلا فبأي حجة يسفك بعضهم دماء بعض ، ويحشدون قوى الطبيعة للقتل والتدمير ؟ ألم يكونوا فى حياة كلها لين وكلها رفاهية ؟ ألم يكونوا سعداء فى ظلال الأمن ؟ ألم تفتح عليهم بركات السماء ، وتدرّ لهم خيرات الأرض ؟

لم تكن لذة من اللذائذ إلا وهى فى متناول أيديهم ؛ ولم تكن سعادة إلا وهى طوع بنانهم ، فتركوا الجنة مريدين ، ودخلوا النار عامدين ، وها هم أولاء يصلوْن بحرّها ، ويلفح وجوههم لهب سعيرها

وفى الحق أن الحجة قائمة والبرهان قوى ، لو أن الناس جميعاً يفكرون هذا التفكير ويصدرون عن مبدأ واحد ، ويؤمون غاية واحدة

لكن الواقع أن الناس يصدرون فى هذه المشكلة عن مبدأين متناقضين ؛ فنظر كل فريق إلى الحياة نظراً يخالف نظر الآخر ، وخيل إلى كل واحد أن الآخر مجنون لا يعرف صالحه ، ولا يدرك حظه . . .

هذان المبدآن هما : إرادة الحياة ، وإرادة القوة . فمن الناس ومن الأمم من يريد من دنياه هذه الحياة ، يبغيها ويتوخاها ويحافظ عليها كيفما كانت وكيفما وقعت

ومن الناس ومن الأمم من يريد من دنياه القوة ، فهو يؤثر أن يكون قوياً فى الحياة ، ولا يعبأ بالحياة إن فقد القوة ، وبطن الأرض خير له من ظهرها إذا لم يكن قوياً ؛ فاذا رأى مريدو الحياة مريدى القوة يأكلون ويشربون وينعمون ، ثم هم يتركون هذا النعيم ، ويحمّلون أبدانهم لتمزيق القنابل ، وإحراق النيران ، عابوهم وزروا على أفكارهم ورموهم بالعته والجنون

وإذا رأى مريدو القوة مريدى الحياة راضين بالحياة غير عابئين بالقوة ، خالوهم كلاباً طوقت أعناقهم بالذهب ، أو موتى فى أكفان من حرير

فليكف مريدو الحياة عن تفنيد مريدى القوة ، وليكفكفوا عبراتهم على من مات منهم ، فلعلهم أولى ممن مات بهذه العبرات ، وإذا فكروا فى لومهم وتفنيدهم فليذكروا قول المتنبي :

لا يحسن المضيا حسن بزته ... وهل يروق دفيناً جودة الكفن

محمد عرفة

فى سبيل الحياة ليعوّض ما فاته من الأنس الذى يوجبه اتحاد الدين

ويظهر هذا جليّاً حين نتمثل حالة السورى الذى يهاجر إلى أمريكا وهو مسيحى ، فإنه فى أمريكا أقوى منه فى أى بلد عربى ، لأن البلد العربى يوافقه فى اللغة وإن خالفه فى الدين ، أما أمريكا فتخالفه من جميع النواحى وإن وافقته أحياناً قليلة فى النحلة المذهبية ، وكذلك نرى السورى المسيحى فى أمريكا أقوى من أخيه فى الشرق بسبب ما يعانيه هنالك من قسوة الاغتراب

ولن يطول اختلاف الحظوظ بين السورى المسلم والسورى المسيحى فى البلاد العربية ، لأن التسامح الدينى يزداد من يوم إلى يوم ، ولأن العروبة تقوى من يوم إلى يوم ، وبذلك ينعدم شعور السورى المسيحي بأنه فى الشرق غريب ، فلا يصل النهار بالليل مكافحاً فى سبيل المعاش ، اكتفاء بالأنس الذى يجده من مشاركة الجمهور فى العواطف والآمال

فمن ارتاب فى هذا التفسير الفلسفى لهذه الظاهرة الاجتماعية فلينظر حالى فى دنياى : فهذا النشاط الذى حيّرتُ به الناس يرجع مصدره إلى الخوف ، وإنما أخاف لأنى أشعر بالغربة فى وطنى لوفرة ما خلق قلبى من الضغائن والحقود

اللهم أدِمْ علينا نعمة الخوف فهو أنفع من الأمان ، ونسألك اللهم أن توالى فضلك فتهبنا القدرة العارمة على وأد ذلك الخوف ، كما نسألك أن ترزقنا الخوف منك حتى لا يكون فى أنسنا برعايتك العالية ما يحمل على سوء الأدب مع عبادك ، ولله الحمد وعليك الثناء

زكى مبارك